البدايات التاريخية للفكر المستقبلي:

لم يكن الجنس البشري منعزلاً طوال فترة التاريخ عن التفكير العميق في المستقبل، فمنذ آلاف السنين فهم أسلافنا الدورة الطبيعية لتكوين الليل والنهار، والحياة والموت، وكذلك مدلولات تعاقب الفصول، كما حاولوا معرفة مكانهم في هذه الدورة، ومصيرهم ومستقبلهم، فابتدعوا النبوءات القديمة، والعقائد، والأساطير، والفنون، والعلوم، والحكمة...الخ، الأمر الذي يوحي بأن الجنس البشري كان وما زال مستقبلياً بالفطرة.

إن اهتمام الإنسان بالمستقبل إذاً يُعد شيئاً مميزاً، وسمة بشرية ظهرت منذ فجر التاريخ، حيث حظيت مسألة الإنسان، خلال تاريخها، باهتمام عميق، دراسة ومناقشة. وقد كان لهذا الاهتمام وتلك المعرفة بالمستقبل جدوى اقتصادية وسياسية هائلة لمن يمارسها، فمن كان قادراً على اكتشاف وملاحظة الارتباطات بين مواقع النجوم، وحركتها، والفيضانات الموسمية في وادي نهر ما، يكون من أهل الكهنوت والقوة الاقتصادية الضخمة والثروة والنفوذ السياسي.

لذا، فقد اهتم البشر دائماً بالمستقبل، ونجد ذلك واضحاً في كل الحضارات القديمة، حيث سعت هذه الحضارات إلى تطوير وسائل منطقية للتنبؤ بتطورات المستقبل، خاصة ما يتعلق بالطقس، والظواهر الطبيعية الأخرى. وعبر التاريخ حاول الكهان والعرافون والمنجمون التنبؤ بأحداث المستقبل.

ورغم هامشية الدور الذي لعبه الإنسان في التدخل في صنع المستقبل، فردياً أو جماعياً في تلك الحضارات، إلا أنها كانت المفجر الأساسي للوعي المستقبلي لدى الجنس البشري.

1- البدايات التاريخية للدراسات المستقبلية:

إن أهم ما يميز هذه الدراسات أنها تتجاوز حدود الممكن لصنع الأفضل للمجتمع البشري في غدٍ أفضل، علماً أن الاكتشافات العلمية التي تستخدم ضد البشرية يمكن أن نشوه وتدمر، خاصة إذا وظفت في مجال التسليح وصناعة الأسلحة، وهنا يأتي دور الدراسات الاستشرافية في إدارة دفة العلم نحو خير البشرية وليس نحو خرابها. ويمكن تصنيف مراحل تطور هذا العلم من خلال ما يأتي:

أولاً: مرحلة العصر الكلاسيكي: وتتمثل هذه المرحلة في المفكرين الأوائل مثل أفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم، ولعل أهم الأفكار التي تتنبأ عن المستقبل في هذه المرحلة، هي **جمهورية أفلاطون**، التي تتصور مدينة فاضلة يحكمها حاكم عادل، وفيها ينقسم المواطنون إلى ثلاث طبقات، النخبة، والجنود، وعامة الشعب، ويشرح أفلاطون تصوره لهذه المدينة بأنه تسود فيها العدالة والمساواة لجميع أفراد الشعب، وجعل الحكم فيها قائم على المشاعية العامة، على أساس حاكم عادل.

أما **أرسطو** فقد جعل السيادة للقانون في تصوره للمجتمع البشري المستقبلي، لأنه رأى أن القانون مهمته كفالة الحريات والجميع متساوون أمام القانون.

إلا أن الفكرة تطورت في **العصور الوسطى** ولعل أهم أعلامها **القديس أوغسطين،** الذي تحدث عن المدينة الفاضلة، حيث رأى أن المدينة الفاضلة على الأرض يجب أن تكون ظلاً لمدينة الله في السماء وتمهيداً لها، حيث يتمركز في المجتمع الخير العام، والتعليم للجميع، ويأتي الفرد بعد الجماعة.

ثانياً: مرحلة عصر النهضة: الذي شهد تحولات حاسمة نتيجة اكتشاف العالم الجديد والثورات الفلكية والفيزيائية، وأعيد بناء المدينة المستقبلية الفاضلة أو الجمهورية في أعمال الخيال من السماء إلى الأرض.

ثالثاً: في عصر الثورة الصناعية: نشطت وتطورت الأفكار المستقبلية وارتبطت بالأفكار الاجتماعية والسياسية، وخاصة ما يسمى **بالاشتراكية المثالية** أو الخيالية، التي ولدت ضد البؤس والمظالم وتصور مجتمع يسوده العدل والمستقبل الأفضل، وقد ظهر **الفيلسوف الإنكليزي فرنسيس بيكون** معتمداً في كتابه (أطلنطا الجديد) على الاختراعات التي حدثت في تلك الفترة، لأنه رأى أن الثورة الصناعية التي جلبت معها المحراث البخاري والقطار البخاري والسفينة البخارية وغيرها من الاختراعات، أصبحت برهاناً على أن العلوم هي أداة اجتماعية لتحسين الحياة البشرية، وهذا ما نشهده الآن، حيث أننا نلاحظ أن كل تطور تقني أو تكنولوجي يؤثر في جوانب الحياة الاجتماعية، والدراسات المستقبلية تدعو للتحكم بهذا التأثير لما فيه من خير المجتمعات.

ولكن الولادة الحقيقية لعلم المستقبل بدأت مع عالم الاجتماع الأمريكي كولن غليفلان، الذي قام بتحديد هذا العلم بمصطلح Mellontology، وهي كلمة يونانية تعني المستقبل، وأكد على ضرورة دراسة المستقبل لأنها على أهمية توازي الدراسات التاريخية والعلمية. فعلم المستقبل بغياب التسجيلات المكتوبة أو غير المكتوبة لا يستطيع أن يعمل ضمن التسلسل الزمني للحقائق، بل إنه بدلاً من ذلك يستفيد من التفسير والتأويل والتعميم والتكهن إلى أعلى درجات، وبذلك تصبح صلته جلية بالأنثروبولوجيا الثقافية، وعلم الاجتماع النظري، والفلسفة الاجتماعية. ويرى **العالم الألماني أوسيب فلختهايم** أن دراسة المستقبل تتصل بدراسة الماضي، وتعتمد على مجموعة من العلوم الاجتماعية.

رابعاً: المدرسة الفرنسية: تتميز المدرسة الفرنسية في الدراسات المستقبلية بالنشأة ذات الطابع الفلسفي والفكري، ومن أهم روادها **جان بول سارتر وجاسون برجيه،** حيث قام جاستون بتطوير هذا العلم ليساعد على إعادة تشكيل المجتمع الفرنسي، الذي عانى من ويلات الحرب العالمية الثانية إلى حد التعرض للدمار الشامل، لذلك

أسس المركز الدولي لعلم الريادة في باريس، الذي يُعَد حجر الزاوية في الدراسات المستقبلية في فرنسا.

خامساً: المدرسة الأمريكية: في الولايات المتحدة الأمريكية في المجال العسكري، ثم انتقل إلى المجال الفكري والتعليمي، ولعل الدراسات المستقبلية نالت اهتماماً واسعاً وكبيراً في عدة مجالات، وكانت غاية الدراسات الاستشرافية الأمريكية تطوير آليات الدفاع والسلاح العسكري. واعتمدت هذه الدراسات على البحوث الاستطلاعية بالدرجة الأولى.

وفي عام 1968 تم تأسيس معهد المستقبل على يد **العالم الرياضي أولف هلمر**، وكان يهدف إلى رسم صورة علمية للمستقبل المرغوب في تحقيقه بالنسبة للأمريكيين. أما في مرحلة السبعينيات فقد تم تأسيس معهد نيويورك للمستقبليات، والجمعية العالمية لدراسة المستقبل.

سادساً: المدرسة السوفيتية (سابقاً): تستند الدراسات المستقبلية في المدرسة السوفيتية إلى النظرية الماركسية اللينينية، التي تعتمد على التخطيط الطويل المدى، الذي يعد سمة بارزة في كافة النظم الاشتراكية. ففي نهاية السبعينيات 1979 تأسست **مجموعة فيلنيس**، التي تضم بعض العلماء السوفييت في مجال التنبؤ من أشهر فرق البحث في مجال المستقبليات، وأكد هؤلاء العلماء أهمية البدء بتشخيص أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية على مستوى الأقاليم، ثم وضع نظام للأولويات يليه البدائل الممكنة التحقيق هذه الأهداف في إطار الموارد المتاحة. وكان التطور الكبير في مجال العلوم التطبيقية والتكنولوجية، بينما لم تحقق هذه الدراسات أي تقدم في المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية.

سابعاً: الإسهامات العربية: لم يبدأ الاهتمام بالدراسات المستقبلية في الفكر العربي إلا في ستينيات القرض الماضي، وظهر عدد من المفكرين العرب الذين حاولوا تطبيق الدراسات المستقبلية لدراسة مستقبل الوطن العربي، وكان منها **مجموعة التخطيط طويل المدى للبلدان التي أنشئت بمعهد التخطيط القومي في القاهرة، وأشرف على نشاطها الدكتور حلمي عبد الرحمن**، وكانت تضم كوكبة من العلماء والباحثين، وقد عملت هذه المجموعة بالتعاون العلمي مع الصندوق العربي الإنمائي الاقتصادي والاجتماعي، وأعدت هذه المجموعة مشروع نموذج عربي للمستقبليات، إلا أن هذا المشروع لم يكتب له الخروج إلى دائرة التطبيق.

ومع ذلك لم تتوقف المحاولات العربية عند ذلك، بل كانت هناك العديد من الكتابات والباحثين في هذا المجال، **ومنهم الدكتور المهدي المنجرة**، الذي يعتبر البرفسور العربي في مجال المستقبليات، وله العديد من الكتابات منها (الحرب الحضارية الأولى)، الذي تناول فيه أوضاع الوطن العربي خلال العشرين سنة القادمة، وقدم في

هذا الكتاب عرضاً للمشاريع العربية الاستشرافية أهمها **(مشروع المستقبلات العربية البديلة) و(مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي)**

وفي القرن الواحد والعشرين نشطت الدراسات الاستشرافية في المنطقة العربية وبجهود عربية، أهمها **مشروع مصر 2020، ومشروع سورية 2025**. وهناك العديد من مراكز الأبحاث العربية في هذا المجال منها: **مركز دراسات الوحدة العربية، والمركز العربي للدراسات المستقبلية، والجمعية المغربية للمستقبليات، ومركز الأهرام**، وكحال العديد من المراكز البحثية في الوطن العربي نادراً ما تنتقل هذه الأبحاث إلى حيز التطبيق.

ومما تقدم نلاحظ أن الدراسات المستقبلية أصبحت تحتل مكاناً متقدماً في مجال الأبحاث والدراسات، سواءً كان ذلك في العلوم التطبيقية أم في العلوم النظرية، وذلك يتبع أن أحد وظائف العلم هو التنبؤ، وليس فقط الوصف والتحليل، علماً أن هذه الدراسات في العلوم الاجتماعية والإنسانية تقف عند التحليل والوصف للوقائع، ولا بد من تفعيل وظيفة التنبؤ لهذا العلم.

الدراسات الاستشرافية والمستقبلية

الاستشراف لغة مأخوذ من الفعل شرف والشرف هو العلو والارتفاع، أما الاستشراف في حقل الدراسات المستقبلية له عدة تعاريف:

منها أنه يقوم على فهم الماضي والحاضر، أي فهم تأثير العوامل التي شكلت معالم الماضي والحاضر معاً.

كما **يعرف الاستشراف** بأنه فعل وفن، وعلم التعرف على إمكانات أحداث المستقبل، وتقييم مثل هذه الأحداث.

وفي التقرير النهائي لمشروع المستقبل العربي، عرّف الاستشراف بأنه التبصر في الشؤون المستقبلية لمجتمع معين، من حيث موقعه من المجتمع الدولي، وبالتالي ما يؤول إليه حال البشر في ذلك المجتمع.

أما الدكتور هادي نعمان يعرفه بانه الإطلال إلى البعيد والتأمل فيه، وهو ينطوي على تكوين صور مستقبلية واقعية مختلفة عما هو قائم.

أسس الاستشراف:

ومن خلال التعريفات السابقة يمكن القول إن الاستشراف يقوم على أسس متعددة أهمها:

1- أنه أحد فروع الدراسات المستقبلية.
2- هدفه بالبحث هو الزمن القادم.
3- يعتمد في دراسته على الماضي والحاضر لتوضيح الدراسة.

4- قائم على التفكير العقلي المنظم.
5- لديه أدوات تتناسب مع الظاهرة المدروسة.
6- يقوم على أسلوبي البحث الكمي والكيفي.
7- يسعى لبناء منظومة معرفية يستند إليها في تصوراته المستقبلية.
8- يجمع بين العلم والفن والفلسفة.

وبالتالي يمكن **تعريف الاستشراف بأنه آلية تفكير علمية منظمة قائمة على دراسة الماضي، وتحليله لتكوين رؤى مستقبلية مبنية على معطيات الواقع بهدف الوصول إلى بدائل واحتمالات يجري التطلع لها لتحقيقها بالفعل من أجل مستقبل أفضل.**

ويمكن القول إن الدراسات الاستشرافية هي من فروع العلوم الاجتماعية، لأنها تعنى بدراسة البنى الاجتماعية، والسلوك الإنساني داخل البنى، لكن في الزمن القادم، ولعل أغلب مفكري علم الاجتماع كانوا يهدفون بشكل أو بآخر للتطلع إلى مستقبل المجتمعات، فعلى سبيل المثال **المادية التاريخية** التي أبدعها ماركس، كانت تتطلع إلى مجتمع العدالة الاجتماعية المتمثل بالاشتراكية، ومن ثم الشيوعية من خلال الجدل التاريخي. **وماكس فيبر** الذي تحدث عن المجتمع الرأسمالي، وعن تطوره مستخدماً بذلك منهجية النموذج المثالي القائمة على نظرية الفعل الاجتماعي.

آلية الدراسات الاستشرافية في الحقل السوسيولوجي:

لا بد من معرفة آلية الدراسات الاستشرافية في الحقل السوسيولوجي وهذا ما بحث فيه عالم الاجتماع **أنتوني جيدنز**، حيث رأي أنه نتيجة للتغيرات المتسارعة التي حدثت في العالم، منها الإفلاس النهائي للماركسية، والاختلاف الذي حدث في الدول الصناعية منذ عقد السبعينيات في دولة الرفاه، وجملة التغيرات على الصعيد الاجتماعي والتكنولوجي والاقتصادي.

فقد درس جيدنز في كتابه الطريق الثالث أهم الملامح الأساسية لمجتمع المستقبل، معتمداً على رسم سيناريو من خلال دراسة الملامح السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع البريطاني، ولكنه لم يهمل النماذج الغربية الأوربية الأمريكية المماثلة لهذا المجتمع. ومن القيم المحورية للسياسة الجديدة ألا تكون هناك سلطة بلا ديمقراطية.

نشأت نظرية الطريق الثالث من مشكلات المجتمع الصناعي المعاصر، وتعد محاولة للبحث عن طريق جديد للتنمية الاجتماعية ذات آفاق علمية، تسعى فلسفة الطريق الثالث إلى تحقيق التواؤم بين بعض القيم التقدمية العريقة، والتحديات الجديدة لعصر المعلومات، وتراكم القوة والثروة واللامساواة.

وتستند فلسفة الطريق الثالث إلى ثلاثة دعائم وهي:

- **التزام الحكومة بأن تكفل تكافؤ الفرص** أمام جميع مواطنيها وترسيخه، ولا تسمح لأحد بأي امتيازات خاصة من أي نوع.
- **مبدأ أخلاقي يقوم على المسؤولية المتبادلة**، التي ترفض سياسات التمييز بالقدر نفسه الذي ترفض به سياسات النبذ كالاستبعاد الاجتماعي، والتهميش، والتمييز، والعنصرية.
- **توجه جديد لعملية الحكم يقوم على تمكين المواطنين** ليتعرفوا بأنفسهم عما يحقق مصالحهم من خلال نقابات، ومؤسسات مجتمع مدني، ومشاريع تنمية حقيقية.

أما مجتمع المستقبل **عند ألفين توفلر** -وهو أمريكي متخصص بمجال الدراسات المستقبلية-فهو مجتمع حضارة **الموجة الثالثة**، حيث نظر إلى مجتمع المستقبل برؤية متكاملة وبشكله الحضاري الأشمل، وبيّن في كتاب الموجة الثالثة، أن هناك ثلاثة أنواع مما يسميه **"الموجات"**، فكل موجة تزيح طبيعة المجتمعات، وطبيعة الثقافات السابقة عليها جانباً، **فحضارة الموجة الأولى (الزراعة)** انطلقت من قبل عشرة آلاف سنة، أما **الموجة الثانية فكانت مع الثورة الصناعية** قبل أكثر من ثلاثمائة سنة، أما التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية الهامة فكانت منتصف الخمسينيات، حيث بدأت تتوضح **معالم الموجة الثالثة**، وهي الأسرة النووية، ونظام التعليم المصطنع، نظام المؤسسات التجارية. ومجتمع الموجة الثالثة، هو مجتمع صناعي قام على أساسات عديدة، على الإنتاج الضخم، والتوزيع الواسع، والاستهلاك الكبير، والتعليم الإلزامي، ووسائل الإعلام ذات الجمهور العريض، ووسائل التسلية والترفيه، حتى نصل إلى انتشار أسلحة الدمار الشامل، ثم تجتمع هذه الأساسيات مع مفاهيم مثل توحيد المقاييس، ومفهوم المركزية، ونظام التواصل، والتزامن السريع، ثم نخرج بنموذج تنظيمي إداري ندعوه البيروقراطية.

وبذلك تكون الدراسات الاستشرافية في حقل الدراسات السوسيولوجية تضيف إلى الأسئلة البحثية الأساسية الثلاثة **(ماذا-لماذا-كيف)** سؤالاً رابعاً هو **(ماذا لو؟)** وهو سؤال يفيد في توقع الاحتمالات الممكنة لأي ظاهرة مدروسة، وتكوين رؤيا متكاملة عن المستقبل.

-أهداف الدراسات الاستشرافية:

وبشكل أكثر تحديداً يمكن القول إن الدراسات الاستشرافية للمستقبل تساعدنا على صنع مستقبل أفضل، وذلك بفضل ما تؤمنه من منافع متعددة، أهمها ما يأتي:

1- **اكتشاف المشكلات قبل وقوعها، ومن ثم التهيؤ لمواجهتها أو حتى لقطع الطريق عليها والحيلولة دون وقوعها**، وبذلك تؤدي الدراسات المستقبلية وظائف الإنذار المبكر، والاستعداد المبكر للمستقبل، والتأهل للتحكم فيه، أو على الأقل للمشاركة في صنعه.

2- **إعادة اكتشاف أنفسنا ومواردنا وطاقاتنا**، خاصة ما هو كامن منها، والذي يمكن أن يتحول بفضل العلم إلى موارد وطاقات فعلية، وهذا بدوره يساعد على اكتشاف مسارات جديدة يمكن أن تحقق لنا ما نصبوا إليه من تنمية شاملة وسريعة ومتواصلة. ومن خلال عمليات الاكتشاف وإعادة الاكتشاف هذه، تسترد الأمة الساعية للتنمية الثقة بنفسها، وتستجمع قواها وتعبئ طاقاتها لمواجهة تحديات المستقبل.

3- **بلورة الاختيارات الممكنة والمتاحة وترشيد عملية المفاضلة بينها**، وذلك بإخضاع كل اختيار منها للدرس والفحص، بقصد استطلاع ما يمكن أن يؤدي إليه من تداعيات، وما يمكن أن يسفر عنه من نتائج. ويترتب على ذلك المساعدة في توفير قاعدة معرفية يمكن للناس أن يحددوا اختياراتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ضوئها، وذلك بدلاً من الاكتفاء –كما هو حاصل حالياً-بالمجادلات الأيديولوجية والمنازعات السياسية، التي تختلط فيها الأسباب بالنتائج، ويصعب فيها تمييز ما هو موضوعي مما هو ذاتي.